Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السادس - العدد السادس عشر || تاريخ الإصدار 2026-07-20

النبوة والفلسفة ـ دراسة تحليليّة ومقارنة

Prophethood and Philosophy: An Analytical and Comparative Study

محمد عبد الرزّاق المصري

Mohammad Abdul Razzak El-Masri

كليّة الدعوة الجامعيّة ـ للدراسات الإسلاميّة ـ قسم الدراسات العليا – بيروت ـ لبنان

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss61622

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
تبحث هذه الدراسة في قضية النبوة والفلسفة من خلال دراسة تأصيليّة مقارنة، تهدف إلى إثبات أسبقيّة النبوة على الفلسفة من الناحية الزمنيّة والمعرفيّة والمنهجيّة، وبيان ضرورة استعمال المنهج العلمي للتأكّد من صدق من يدعي النبوة، والتركيز على إثبات وجه الإعجاز العلمي في القرآن، للبيان أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر إن هو إلّا وحيً منزّل من خالق البشر.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائي والتحليلي والمقارن، حيث تمت دراسة النصوص القرآنيّة والنبويّة ذات الصلة، وتحليل المذاهب الفلسفيّة.

وتوصّلت الدراسة إلى أنّ العقل البشري يحتاج إلى الوحي لإدراك الحقائق الغيبيّة، وإن أعرض وصل إلى تضارب وتناقض في الآراء، وأنّ النبوة ضرورة يقرّها العقل والعلم لكشف أغوار الغيب ومواجهة التحدّيات الفكريّة المعاصرة. وكذلك الوحي يحتاج إلى العقل للتأكّد من صدق النبي.

الكلمات المفتاحية: النبوة، الفلسفة، الوحي، الإعجاز العلمي في القرآن، العلاقة التكامليّة.

Abstract:

This study examines the issue of Prophethood and Philosophy through a comparative and foundational approach. It aims to establish the precedence of Prophethood over Philosophy in terms of time, knowledge, and methodology. It also highlights the necessity of employing Scientific methods to verify the truthfulness of those who claim Prophethood, with a focus on demonstrating the aspect of Scientific miraculous Ness in the Qur'an, to prove that this Qur'an could not be the work of the human being. It is nothing but a Revelation sent down by the creator of mankind.

The study adopted the inductive, analytical, and the Relevant Qur'anic and Prophetic texts were examined, and the Philosophical doctrines were analyzed.

The study concluded that the human intellect, by itself, is in need of Revelation to perceive matters of the unseen. Without it, it falls into contradiction and conflicting opinions. The study also affirmed that Prophethood is a necessity acknowledged by both reason and science to uncover the depths of the unseen and to address contemporary intellectual challenges. Furthermore, Revelation is in need of reason to verify the truthfulness of the Prophet.

Keywords: Prophethood, Philosophy, Revelation, Scientific Miracles in the Qur'an, Complementary Relationship.

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلّا يكون للنّاس على حجّة بعد الرسل، فله الفضل والشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، حجّة الله على العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

المقدّمة وفيها الشروح وأهمّيّة الموضوع، و تعريف الدين والفلسفة، وتعريف النبوة وضرورة وجودها وأدلّة إثباتها، لقد قصرنا هذا البحث على الفارابي كممّثل للخط الفلسفي، والغزالي ممثّلاً للخط الديني ثمّ انتقلنا إلى الخاتمة وفيها النتيجة والتوصيات.

أهميّة الموضوع وسبب اختياره

تتجلى أهميّة هذا الموضوع في أنّه يستعرض بعض الطرق التي حاول بها الإنسان أن يحلّ لغز المنشأ والمصير بعد الموت، محاولاً أن يقارن بين طريق الوحي (النبوة) وطريقة الفلسفة في سبر أغوار الغيب لمعرفة أصل الحياة والمصير بعد الممات، ليكشف الطريق الأمثل لحل إشكاليّة المبدأ والمعاد.

أحسّ في نفسي دبيب الفناء ولم أذق في العيش إلّا الشقاء

يا حسرتي إن حان حيني ولم يتح لفكري حل لغز القضاء[1].

يقول توفيق الطويل: "من هنا حار الفلاسفة في أمر هذا الكائن الذي يبدو حيناً مارداً جبّاراً، وحيناً ضعيفاً متهاوٍ ومتداعٍ قد تنقله إلى القبر لسعة بعوضة"[2].

إنّ مبحث النبوة هو مبحث أساسي ومفصّلي، وهو الركن الثاني من أركان الإيمان، التي يقوم على أساسه الدين السماوي، وإذا كان العقل البشري باستطاعته أنّ يتوصّل إلى الإيمان بخالقٍ لهذا الكون، ولكنّ هذا العقل يعجزه إدراك ذات الخالق، كما يعجزه معرفة ماذا يريد الخالق من خلقه.

إشكالية البحث

تدور الإشكاليّة حول قصور العقل البشر عن إدراك عالم الغيب وحده، ففي حين ذهب بعض المفكرين إلى الاكتفاء بالعقل المجرد كمصد للمعرفة وأنكر الحاجة إلى الدين وذهب آخرون إلى جعل الوحي المصدر الأسمى والأعلى للمعرفة.

وهنا تبرز مهمّة العقل البشري في الاجتهاد للتأكّد من صدق من يدّعي النبوة بالوسائل والآليات المناسبة.

ولقد قصرنا دراستنا على الفارابي، كممثّل للخط الفلسفي باعتباره الشارح الأكبر لفلسفة اليونان وكلّ من جاء بعده أخذ عنه وتأثّر به، ودرسنا الإمام الغزالي عن جهة الفكر الديني.

أهداف البحث

بيان مفهومي النبوة والفلسفة لغة واصطلاحاً، وتحديد العلاقة بينهما. وإثبات أسبقيّة النبوة على الفلسفة زمنياً ومعرفياً ومنهجياً من خلال الأدلّة والبراهين العلميّة والعقليّة.

بيان عجز العقل المجرّد عن ثبر أغوار عالم الغيب، وبيان ضرورة استعمال العقل والعلم للتأكّد من صدق من يدعي النبوة، وبيان مواضع الاتفاق بين العقل والوحي.

الدراسات السابقة

لم أقف -في حدود علمي- على دراسة بعنوان "النبوة والفلسفة" دراسة تأصيليّة ومقارنة.

وقد تناولت كتب العقيدة مبحث النبوة، ودرست كتب الفلسفة آراء الفلاسفة، كما بحث بعض المعاصرين في الصراع بين الدين والفلسفة.

إلّا أنّ هذه الدراسات لم تربط بينهما من خلال قصص الأنبياء، والإعجاز القرآني كدليل على صدق النبوة وأسبقيتها، وهذا ما يميّز هذه الدراسة.

منهج البحث

اعتمدت في هذا البحث المنهج الإستقرائي التحليلي المقارن، وذلك على النحو التالي:

المنهج الاستقرائي: في تتبع النصوص القرآنيّة والنبويّة والتاريخيّة.

[1] - ديوان رباعيات الخيام، عمر الخيام، ترجمة: أحمد رامي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1950، ص 42.
[2] - قصة الصراع بين الفلسفة والدين، توفيق الطويل، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ط1، 1979م، ص 13.

المنهج التحليلي: في عرض وتحليل آراء الفارابي والغزالي.

المنهج المقارن: في الموازنة بين منهج النبوة ومنهج الفلسفة وبيان أسبقيّة الأول.

١ الفصل الأول: المفاهيم الأساسية

١,١,١,١ المبحث الأول: ماهية الدين

الدين في اللغة: جاء في المصباح المنير: "دان الرجل يدين ديناً من المداينة،... فيقال دنته إذا أقرضته، فهو مدين واسم الفاعل دائن، فيكون الدائن من يأخذ الدين، وعلى اللزوم من يعطيه، وقال ابن القطاع: أيضاً دنته أقرضته، ودنته استقرضت منه، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾[3].

فثبت بهذه الآية أنّ الدين لغةً هو القرض، ... ودان بالإسلام ديناً بالكسرة تعبّد به ودين به كذلك فهو دين مثل ساد فهو سيد، .. ودنته أدينه جازيته،" [4].

فالدين بسكون الياء هو القرض، والدين بكسر الياء هو الديانة.

"الديانة: ما يُتديّن به الإنسان.

الدين بسكون الياء، القرض ذو الأجل.

الديّان بتشديد الياء هو اسم من أسماء الله"[5].

والدين بعنى الجزاء، ومنها يوم الدين: هو يوم الجزاء، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾[6].

والدين في الاصطلاح العام: هو المنهاج الذي يتعبّد به، وهو ما يؤمن به الإنسان ويعتقده عقيدة بالذي يخبره بشأن الخالق، عالم الغيب ومصير الناس بعد الموت، ويتبع تعاليمه في شف الشعائر التعبّدية، ويتبع أوامره في الأخلاق والسلوك والتعامل مع الآخرين.

والدين هو مجموع الشعائر الذي يقوم بها المؤمنون بقدسيّة معبودهم، سواء كان هذا المعبود بحق أو بباطل، سواء كان ديناً سماوياً من عند الله كالإسلام، أو ذو اصل سماوي قد طرأ عليه تغيّر بسبب البعد الزمني والأحداث الطارئة التي غيّرت في بعض أصوله، مثل : اليهوديّة والنصرانيّة، ومثل الهندوكيّة والبوذيّة التي يعتبرها البعض أنّها وضعيّة من صنع البشر، وقد تكون ذات جذور دين سماوي حقيقي، وخاصّة أن الله أخبرنا أنّه قد بعث لكلّ أمة رسول، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾[7].

وفي الاصطلاح الإسلامي: هو الدين الأول والدين الحقّ الذي أنزله الله على أنبيائه كافّة، من أول الأنبياء وأول البشر: آدم عليه السلام، إلى الأنبياء من بعده نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويقوب ويوسف، وموسى وعيسى وانتهاء بخاتم الأنبياء محمد عليه وعلى الأنبياء كافة أفضل الصلاة والسلام، وبذلك فهو دين الأنبياء أجمعين.

---

[3] - البقرة: 282.
[4] - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلميّة، بيروت 1987م، ص 244.
[5] - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيّات، حامد عبدالقادر، محمد النجّار، المكتبة الإسلاميّة للطباعة، تركيا، د ت، ص 307.
[6] - الانفطار: 17- 19.
[7] - فاطر: 24.

قالَ تعَالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ ﴾[8].

فدين الله هو واحد هو دين الأنبياء كافّة، أسماه الله الإسلام، فدين الله هو الدين الإسلامي، وقد وصى به الأنبياء كلّهم.

قالَ تعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ ﴾ [9].

قالَ تعَالَى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[10].

وكذلك ورد اسم الإسلام هو دين موسى وعيسى. قال تعالى:

﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[11].

والحواريون قالوا اشهد بأنّا مسلمون.

قالَ تعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِۖ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[12].

وقد حدّد الله تعالى في قرآنه أنّ من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. فهو دين الأنبياء كافّة، وهو الأصل الأول لمعرفة البشر عن ربهم، وماذا يريد منهم وإلى أي مصير ينقلهم، فهو خالقهم من عدم، الخالق هو الذي يحدّد الحكمة من المخلوق، كما في المنطق الصانع هو الذي يحدّد الحكمة من المصنوع.

٢ المبحث الثاني: ماهية الفلسفة

الفلسفة في اللغة: هي كلمة مؤلفة من أصلين يونانيين **(فيلو)** أي الصديق و **(صوفيا)** أي الحكمة، فيكون معن الفلسفة من جهة الاشتقاق اللغوي محبة الحكمة[13].

[8] - الشورى: 13.
[9] - آل عمران: 19.
[10] - البقرة: 131- 132.
[11] - آل عمران: 84- 85.
[12] - آل عمران: 52.
[13] - انظر: الوافي في الفلسفة، عبده الحلو، محمد عبد الملك، ميشال سلوم، بهزاد جابر، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 2000م، ص 14.

"وأول من استعمل هذه الكلمة فيثاغورس الفيلسوف اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد، فكان رأيه أنّ الله وحده هو الحكيم؛ وأمّا جلّ ما يطمح إليه الإنسان فهو يكون مجرّد صديق للحكمة، وفي هذا الإتجاه سار الفكر اليوناني"[14].

الفلسفة هي بدايةً كانت محاولة لإيجاد الجواب الشافي لكلّ الأسئلة التي تواجه الإنسانيّة في مسيرها منذ فجر التاريخ، وإذا كان هناك من خلاف قد نشأ حول مدلول هذه اللفظة، فرغم وجود فريق من الذين قصّروا مباحث الفلسفة على المعرفة النظريّة تميزاً لها عن المعرفة العلميّة، إلّا أنّ تاريخ الفلسفة والفلاسفة عبر مخاضه الطويل منذ بداياتها يظهر أنّ الفلسفة وإن اختلفت مناهجها واتجاهاتها تعنى بالبحث في المعرفة والوجود، ومذاهبها الفلسفية حتى أولئك الذين أرادوا فصل الفلسفة عن العلوم الماديّة التجريبيّة، اعتبرت نظرتهم نظرة فلسفيّة إذ الفلسفة تجمع كلّ الذين تكلّموا في المعرفة وطرقها والإنسان وعلاقاته بأخيه الإنسان من جهة، وبالعالم المحيط من جهة ثانيّة، محاولةً منها للكشف عن ألغاز هذه الحياة والوصول إلى السعادة المثلى.

"ليس هناك فلسفة نتعلمها، إنما نستطيع أن نتعلّم كيف نتفلسف، وحتى لو طلب منّا أن نعرف مذهباً لبعض الفلاسفة فلن يكون علينا أن نبقى عبيداً لأي مذهب أو فكرة لأنّ فلسفة لم تحط بإجماع العقول، وغالباً ما كانت المذاهب الفلسفيّة القديمة والحديثة والمعاصرة أيضاً متناقضة، ومما لا شك فيه أنّ التناقض في المذاهب هو مشكلة الفلسفة وحافزها الأساسي؛ فإنّ أي فلسفة لم تستطع أن تضع نهاية للفلسفة بالرغم من أنّ هذه هي غاية الفلسفة، فعلى من يريد أن يتفلسف أن يبدأ بالاعتراف بحدود إمكاناته وبجهله، أن يبحث بكلّ تواضع عن الحقيقة وتحديد المشاكل وطرح الحلول الممكنة في إطار معطيات واقعنا ومكتسباتنا"[15].

من هنا نقول أن الفلسفة هي البحث عن الحقيقة والحكمة والخير والجمال والحق في كلّ مجال، وأن تسخّر هذا المعرفة في خدمة الإنسان والمجتمع، ولكن نحن في عصر العلم، فلا بدّ للفلسفة أن تستعين بالوسائل المساعدة التي تعينها على كشف وجه الحكمة والعدل والحق في أي مجال تبحثه.

"إنّ كلّ من يؤمن بالعلم، يعلم أنّ الفلسفة لا تزودنا بنتائج قاطعة وبمعرفة نتمكّن من امتلاكها، لقد توصّلت العلوم إلى معارف أكيدة تفرض ذاتها على الجميع بعكس الفلسفة التي لم تحقق أي نجاح من هذا النوع، وهذا أمر لا أحد ينكره، فلا يوجد في الفلسفة إجماع على معرفة نهائيّة، فما أن تفرض معرفة ذاتها باسباب قاطعة فأنّها تصبح معرفة علميّة لا فلسفيّة"[16].

وبهذا فإنّ الفلسفة هي البحث المستمرّ عن أسالة لا يكون الجوب عنّها يقيني، فالبرغم من حاجة الفلسفة إلى العلم، فهي كلّ ما وصلت إلى حقيقة علميّة ثابتة تجاوزتها في البحث عن مسألة جديدة تسبق العلم في تصورها.

٣ المبحث الثالث: الدين والفلسفة

من يمعن النظر في جئور العلوم عند الإنسان يتبين له أنّ أصل العلوم عند البشر هي منزّلة من عند الله الخالق على الأنبياء والرسل، ابتداء من آدم أوّل البشر وأول الرسل، فقد علمه الله الأسماء كلّها وأنزل عليه شريعةً تبيّن له طريق الجق والخير، وتحذّره من طريق الشرّ، مروراً بسلسلة كبيرة من الرسل انتهت بخاتم الرسل (محمّد ﷺ) وخاتم الكتب (القرآن).

وتقرّر العلوم الحديثة والدّراسات الأنتربولوجيّة أنّ الدين أسبق من الفلسفة، وأنّه هو الذي أعطى البشريّة تلك الحصيلة الضخمة من الفكر والعلم والمفاهيم والقيم، التي ما تزال تتداولها حتى الآن، وأنّه هو الذي زوّد العلم بمجموعة من الصور، يختار من بينها تمثّلاً أولياً للكون، وزوّد الفلسفة بمعنى اللامتناهي والعدل والظلم والحقّ والخير والشرّ والخالد والفاني، وهي قيم لا تزال تحتفظ حتى الآن بمفهومها الأول."[17].

وهذا يعني أنّ الدين هو الأساس الأول في الفكر البشري، ويتوافق هذا مع الحقيقة القرآنية: أنّ آدم أبو البشر وقد علّمه الله الأسماء كلّها، وأنزل إليه الهدى. قال الله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)[18].

---

[14] -. الوافي في الفلسفة، م ن، ص 14

[15] - الوافي في الفلسفة، م س، ص 14- 15.

[16] - الوافي في الفلسفة، م س، ص 19.

[17] - نقلاً عن أنور الجندي، دراسات إسلامية معاصرة، ج6، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1982 م، ص 173.

[18] سورة البقرة، 31 – 33.

يقول بلوتارك[19]: "من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار، وبلا ثروة، وبلا آداب، وبلا مسارح؛ ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا تُمارس فيها الصلاة. فالدين طابع الإنسان، وإحدى ضرورات الإنسانيّة"[20].

.

ونحن اليوم في القرن الحادي والعشرين إذا اطلعنا على المجتمعات الإنسانيّة في أنحاء العالم كله، لا نجد مجتمع بدون عبادة يمارسها، وهذه العبادة قد تشوبها شوائب كثيرة بحسب بعدها أو قربها من دعوة الأنبياء، التي تكون قد وصلتهم مشوهة أو دخلها التحريف عبر العوامل الزمنيّة المتعدّدة، ولكن ما أريد أن أقوله أنه لا يوجد مجتمع إنساني على وجه الأرض ليس له دين، حتى التجمعات البدائيّة في مجاهل الكرة الأرضيّة، وهذا يؤكّد أنّ الإنسان يحتاج بفطرته إلى دين يفسّر له يحلّ من خلاله لغز المنشأ ويطمئن من خلاله عن العاقبة بعد الموت، ويفسر لها عالم الغيب.

"نحن نؤمن بأنّه بغير الدين ما استطاعت البشرية أن تنشئ هذا الفكر الحي الخالد، وظلّت تتخبّط في الأساطير التي تنسجها العقول المكدودة والنفوس الخائفة من عوالم المجهول، والدّين هو الذي هدى البشرية إلى الأمن النفسي والسكينة والرحمة والثقة بالله"[21].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥ ﴾[22].

"وإذن اختلاف المجال بين الدين والعلم، عاملاً مساعداً لعدم الاختلاف في التبني، أو التكامل؛ فإنّ وحدة المجال تقريباً بين الدين والفلسفة، كانت مدعاة لسوء التفاهم في أغلب الأحيان.

إنّ التعاليم السماويّة والدينيّة تحكي قصّة الخلق، وترسم علاقة الإنسان بربّه، وبأخيه الإنسان، وعلاقته بالطبيعة، باختصار إنّ موضوعاتها الإلهيات، والطبيعيات والأخلاق، وهذه هي نفسها موضوعات المجال الفلسفي، لكنّ الاختلاف بينهما هو اختلاف منهجي، ففي حين يتمثّل في التعاليم الدينيّة الأمر الإلهي، والطاعة تقوم فيها على الإيمان، قبل التعليل العقلي، الذي لا يستبعد عند الضرورة؛ فإنّ الفلسفة تعتمد العقل طريقاً لبلوغ الحقيقة"[23].

هناك فرق بين الفلسفة الماورائيّة والفلسفة بشقها العلمي المادي، فالدين لا يختلف مع الفلسفة بشقها العلمي المادي، ولكن يختلف مع الفلسفة التي حاولت تفسير الماورائيات بالعقل المجرّد عن وساطة الوحي، ولعلّ الفلاسفة الكبار مثل أفلاطون وأرسطو لو تسنى لهم أن بلغتهم تعاليم الدين الحقيقيّة بعيداً عن النقص والتحريف لتوافقوا معها بكثير من التعاليم، ولكن ما حدث أنه لم تبلغهم دعوة الرسل بشكلٍ مباشر وقد بلغتهم بشكل منقوص ومتناقض ممّا جعلهم يقتصرون على ثبر أغوار الغيب بالعقل المجرّد وهم وصلوا إلى حقيقة الإيمان بالخالق الأول وأطلقوا عليه اسم واجب الوجود، ولكنّهم اختلفوا في معرفة ماذا يريد الخالق من خلقه.

"وفي محاولة التقريب بين الفلسفة والدين قيل: إنّ الفلسفة تصل عن طريق العقل، إلى الحقائق نفسها التي يقولها الدينعن طريق الوحي.

طبعاً هذا شأن الفلسفات المؤمنة، التي تقرّ بوجود الخالق، وبصدور العالم عنه، وارتباط مصير هذا العالم به، وإن اختلفت هذا الفلسفات مع الأديان عموماً، في هيكلية تفاصيل علاقة الخالق بالمخلوقات؛ فإنّ هذا الاختلاف ليس بأشد من اختلاف الأديان، فيما بين بعضها البعض، في تعاليمها وفرائضها، وإن اجتمعت كلّها على التوحيد، وعلى مصير الإنسان.

---

[19] بلوتارك (46م -120م)، كاتب ومؤرخ إغريقي وراوي تراجم، اشتُهر نتيجةً لمؤلَّفه الحياة المتوازية لليونانيين والرومانيين. نقلاً عن الموسوعة الشاملة المرقّمة آلياً.

[20] دراسات إسلاميّة معاصرة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص 173.

[21] - نقلاً عن أنور الجندي، دراسات إسلامية معاصرة، ج6، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1982 م، ص174. وللتوسّع انظر محمد أحمد الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ط 1، 1992م، دار القلم، دمشق، ص 25 - 31.

[22] - الحديد: 25.

[23] مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين، رضا سعادة، دار الفكر اللبنانيّة، بيروت، ط 1، 1990م، ص 10.

إنّ فلاسفة كبار عبر التاريخ، أمثال أفلاطون، وديكارت، وكانط، وهيجل، قد جهدوا في إقامة الدلائل والبراهين العقليّة على وجود الله"[24].

"إنّ أبرز أوجه تناقض الدين مع العلم، تظهر في عدم إقرار الدين بالحتميّة العلميّة، لأنّ من شأن ذلك الإقرار، نفي القدرة والإرادة وحرّية الله المطلقة في الأفعال، فالحتميّة العلميّة، تقضي باستحالة تحوّل العصا إلى ثعبان، وباستحالة أن يوضع إنسان في النّار فلا يحترق؛ لكن ذلك جائز في حكم الأديان، والله قادر على فعل كلّ شيء، وإلّا انتفت المعجزات وبطلت الخوارق"[25].

ولكنّ الدين في حقيقته لا يرفض الحتميّة العلميّة؛ بل يحضّ على الأخذ بقانون الأسباب والمسببات، في آيات كثيرة، وهو مبدأ أساسي في الشريعة الإسلاميّة، والإيمان بالمعجزة لا يتنافى مع الإقرار بحتميّة الأسباب، ولولا الإيمان بحتميّة الأسباب لما كان للمعجزة هذا الإبهار، فهي تأخذ حجيتها الدامغة لأنّها تخرق ما جرى عليه قانون السببيّة، لأنّها من صنع الله الذي خلق الأسباب والمسببات، فهو وحده القادر على خرق قانون السببيّة، والمنطق العقلي لا يرفض امكانيّة حدوث المعجزة من قبل الله، لأنّ العقل أقرّ بقدرة الله المطلقة.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ الدين الحق لا يمكن أن يتناقض ما ما يقرّه العلم والمنطق العقلي السليم، إنّما يحدث الخلاف عندما يخوض العقل خارج نطاقه المعلوم، فيصل إلى نتائج خاطئة، أو عندما يُنسب إلى الدين ما ليس منه بالخطأ، فيتناقض هذا الملحق خطأً بالدين مع الحقيقة العلميّة الثابتة، وقد أثبتنا فيما سبق أنّ الحقيقة العلميّة الثابتة تتوافق مع الحقيقة الدينيّة الثابتة.

وما يحصل من اختلاف هو عندما يصدرعن نظريّة علميّة غير ثابتة تختلف مع الدين، فيتوهّم بسبب ذلك من لا يمعن النظر بأنّ الدين لا يتوافق مع العلم، لأنّه تعامل مع نظريّة علميّة لم تصل إلى درجة الثبوت العلمي، على أنّها حقيقة علميّة، وفي الواقع نرى العلم الحديث قد أثبت خطأ كثير من النظريات العلميّة والفلسفيّة السابقة، وكما أشرنا سابقاً أنّ هناك فرقٌ كبير بين النظريّة الفلسفيّة أو العلميّة التي لم تثبت حقيقة وهي في معرض الظن العلمي، وبين الحقيقة العلميّة الثابتة بالمقاييس العلميّة من التجربة والإستقراء والاستنتاج الذي يؤكد ثبوتها، فإذا ثبتت هذه الحقيقة العلميّة لا يمكن أن تتناقض مع الحقيقة الدينيّة القطعيّة الثبوت والدلالة.

٤ الفصل الثاني: نبوة الأنبياء قبل فلسفة الفلاسفة

٥ المبحث الأول: النبوة في القرآن والتاريخ

٦ المطلب الأول: النبوة في اللغة

جاء في المصباح المنير: "النبأ مهموز الخبر، والجمع أنباء مثل سبب وأسباب، وأنبأته الخبر وبالخبر نبأته به أعلمته، والنبي على فعيل مهموز لأنه أنبأ عن الله أي أخبر، والإبدال والإدغام لغةً فاشية، وقرئ بهما"[26].

فالنبوة في اللغة هي ما ارتفع من الأرض، ويقال نبأ الشيء إذا ارتفع، وفي الاصطلاح الشرعي هو اصطفاء الله لفرد من الناس بالوحي إليه، "فالنبيّ عبدٌ اصطفاه الله بالوحي"[27].

[24] مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين، رضا سعادة، م س، ص 11.
[25] مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين، م ن، ص 9.
[26] - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلميّة، بيروت 1987م، ص 720.
[27] - العقيدة الإسلاميّة وأسسها، عبدالرحمن حسن الحبنّكي، دار القلم، دمشق، ط1، 1988م، ص297.

٧ المطلب الثاني: دلائل إثبات صدق الإنبياء

الباحث في تاريخ البشر يعلم أنّ أصل علم الإنسان عن الله هو الله ذاته، وذلك عبر الرسل الذين كان أولهم آدم عليه السلام، قال تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[28].

منذ خلق الله الإنسان أعطاه الفطرة والعقل وأنزل إليه مبادئ شرعيّة تتناسب مع زمنه الأول وتقبل التطور ضمن تلك القواعد الفطريّة والعقليّة المركّوزة في الإنسان، قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[29].

إنّ لكلّ حوار أسسٌ وثوابت تكون بمثابة قواعد وقوانين، يُعرف من خلالها مدى صحة أو خطأ الأفكار التي هي مضمون أي بحث، فكما أن للهندسة قواعد نرجع إليها في البناء، وكما لعلم للطب قواعد نرجع إليها في العلاج.

وهذا ما نراه في المجامع العلميّة كافّة، حيث تُضبط القواعد والمعايير، ويصل الجميع إلى نتائج موحّدة منضبطة بقواعد علميّة دقيقة، فإذا اختلف مهندسان على حجم قوة أحد مولدات الطاقة، فهناك آلات فحص يُعرف من خلالها حجم الطاقة التي ينتجها هذا المولّد بشكل دقيق، فعندما نأتي بهذه الآلات تظهر الحقيقة ويبطل الخلاف، أمّا إذا لم نرجع إلى آلات الفحص نبقى في إطار التخمين، وغالباً يتحوّل الحوار إلى جدلٍ عقيم.

ونحن في هذا البحث نريد أن نحدّد المعايير التي ننطلق منها ونوضّح الموازين التي نحتكم إليها "للمعارف المحترمة مصادر معيّنة لا يعوّل على ما وراءها. فإذا كان مصدرها إنسانيّاً فيجب أن تنبع من ثنايا المنطق التجريبي أو الرياضي كما هو حاصل الآن في علوم الكون والحياة وفيما يتصل بأحوال المادة وشؤون النّاس.

أمّا إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة -أي بما يقصر المنطق التجريبي والرياضي عن مناله- فإنّ الوحي الصادق هو سبيلها ولا يُقبل غيره فيها... فإذا تظاهرت الدلائل على صدق نبيّ ما، فإنّ ما جاء به من عند الله يأخذ وصف اليقين وينقطع دونه الجدل"[30].

ونحن إذ نعالج في هذا الفصل**"**نبوة الأنبياء قبل فلسفة الفلاسفة**"** فهذا يحتّم علينا أن ندرس القواعد والأسس التي ينطلق منها الفكر الإسلامي، الذي يعتبر المصدر الأول لكلّ المواضيع التي تتعلّق بعالم الغيب وتاريخ الأنبياء والرسل.

فالدين الإسلامي هو المصدر الأول الذي استند عليه في سبر أغوار هذا البحث، وأحرص على أن يكون اجتهادي الفكري في هذا البحث لا يخالف ثوابت القرآن والسنة، فهما المصدران لكلّ الفكر الإسلامي، ولمّا كان هذا البحث يعتمد على الدين الإسلامي، كان واجب علينا أن نبيّن حقيقة هذا الدين والأدلّة والبراهين التي يستند عليها.

لذلك قبل أن نتحاور في أيّ مسألة من المسائل الفرعيّة في الدين الإسلامي، كان من الواجب أن نعود إلى الأصل، هل هذا الذي نحاوره مؤمن إيماناً صحيحاً بأنّ هذا القرآن كلام الله، وبعد أن نبيّن بالأدلة والبراهين العقليّة والعلميّة، أن هذا القرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، وقد بسطنا تلك الأدلة في الصفحات اللاحقة في مبحث المعجزة الخالدة، فمن آمن بأنّ القرآن كلام الله إيماناً يقينيّاً، وجب عليه أن يتّبع آياته.

---

[28] - البقرة: 31.

[29] - الإنسان: 1-3.

- عقيدة المسلم، م س، ص **180**.30

فليس له أن يقول إنّه مؤمن ثمّ يرفض آيات القرآن ويعترض على أحكامها، لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[31].

فهناك عدد كبير من الآيات التي تفرض على المؤمن أن يتبع أمر الله في قرآنه، وتحكم على من أعرض بالفسوق والمروق من صفوف المؤمنين قال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[32].

قديما تأثرت الفلسفات والشرائع الإنسانيّة بالشرائع السماوية السابقة، فالدين أسبق من الفلسفة، وهكذا يتأثر اللاحق بما سبقه، آدم أول البشر كان يحمل رسالة الله لخلقه ومن جاء بعده تأثر بتلك العلوم التي علّمها الله لآدم عليه السلام، وهكذا من جاء بعد نوح تأثر بشريعة نوح، ومن جاء بعد إبراهيم تأثر بشريعة إبراهيم، وكذلك هناك سلسلة كبيرة من رسل الله عبر التاريخ، فالله تعالى يقول:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[33].

فالدين قبل الفلسفة، لذلك تأثّر أصحاب الفكر الفلسفي والقانوني بما سبقهم من شرائع المرسلين عليهم السلام.

ولكن نتيجة لتباعد الزمن بين الناس ورسلهم، أخذت العقول البشريّة تزيد وتُنقص، فاختلط الحق بالباطل، وهناك فريق لم تصلهم رسالة الرسل، فهم يتخبطون في مسائل الغيب خبط عشواء، بلا هدى ولا برهانٍ مبين، قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾[34].

فالعقل يقرّ حتماً بوجود خالقٍ لهذا الكون، لكنه لا يستطيع أن يعرف ذات الخالق إلّا من خلال معلومات أنزلها الله عن ذاته عبر رسله.

"من حقّ النّاس أن يسألوا كلّ رجلٍ يزعم أنّه مرسل من عند الله: ما دليلك على صدق قولك؟ فإذا قدّم لهم الدليل المقنع على صحة رسالته قبلوه واستمعوا له"[35].

فنحن نؤمن أنّ الله أرسل لكلّ أمّة رسولاً، وأيّد كلّاً منهم بالمعجزات التي لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يأتي بمثلها، لأنّها من عند الله الخالق لهذا الكون، يؤيّد بها رسله تصديقاً لهم، وعلى الإنسان أن يستعمل العقل والعلم للتّأكد من صدق الرسل.

٨ المطلب الثالث: المعجزة الخالدة

وإذا قيل : كيف يؤمن في زمانا هذا من لم ير الأنبياء ولم ير المعجزات، نقول: إن الله الحكيم العليم عندما جعل محمّداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، فلن يأتي من بعده رسول يهتدي البشر به، لذلك أيده الله بأعظم المعجزات، ويؤكد ذلك الرسول ﷺ بقوله:

[31]- الأحزاب: 36.
[32] - النساء: 65.
[33] - فاطر: 24.
[34] - الحج: 8.
[35] - م ن، ص **187**.

"ما من الأنبياء من نبيّ إلّا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ**.** فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**"**[36]**.**

فكما كان الرسل يتحدّون أقوامهم بالمعجزات التي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها لأنها من عند الله، كذلك فإنّ الله يتحدّى بهذا القرآن البشريّة جمعاء قال تعالى**:**

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[37]**.**

فكلّ آية من آيات القرآن تتحدى البشريّة إلى قيام الساعة، قال تعالى**:**﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[38]**.**

وفي هذا تتجلّى حكمة الله المحيطة بالزمان والمكان، فالله عندما جعل محمداً خاتم الأنبياء، علم أنّه سيأتي هذا الزمن الذي تتطور فيه الوسائل، حتّى يتحوّل العالم إلى قرية كونيّة واحدة فيسهل تبليغ الرسالة الخاتمة لأنحاء العالم كافّة، وقد أودع الله في هذا القرآن آيات بيّنات تتجلّى وجوه إعجازه في كل زمان، فلو سئل أيّ مسلم عن أكبر معجزة أيّد الله بها نبيه محمدﷺ؛ لأجاب أنّها القرآن العظيم، وقد أشار إلى ذلك الله تعالى بقوله**:**﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[39]**.**

فهذا القرآن نذير لمن بلغه في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو السبيل لهدايتهم، قال تعالى**:**﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[40]

والله تعالى يطلب من البشر أن يتفكّروا في آيات القرآن حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق، قال تعالى**:** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[41]**.**

وأكّد الله تعالى أنّ الذي يطّلع على آيات القرآن بعلمٍ وبصيرة، وبتجرّد من العصبيّة والعداوة المسبقة، لا بدّ أن يعلم أنّ هذا القرآن هو كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى**:** ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾[42]**.**

- صحيح مسلم، الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري النيسبوري، تـ **261** هـ، دار ابن رجب، المنصورة، ط**1**، **2002**م، كتاب الإيمان، باب 36 وجوب الإيمان برسالة نبينا محمّد إلى جميع النّاس ونسخ الملل بملته، ص **93**، رقم**: 152.**

[37] **- الإسراء: 88.**

[38] **- البقرة:** 23 - 24.

[39] - الأنعام: 19.

[40] - الإسراء: 9.

[41] - فصلت: 53.

[42] - سبأ: 6.

وهذه قصّة أحد علماء الغرب واسمه: **(كيث مور)**[43] بعد أن أعلن إسلامه، قال بما معناه: لقد اطلعت على القرآن **(كتاب المسلمين)** فوجدت فيه من الحقائق العلمية ما لا يمكن لعقل بشري أن يأتي بها، وخاصّة في الزمن الذي نزل فيه القرآن، منذ ألف وأربعمئة عام، وهذه المعلومات لم نصل إليها إلّا في القرن العشرين، وبوسائل علمية متطورة، هذه الحقائق جعلتني أتأكد بيقين لا شكّ فيه أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر، ولا بدّ أن يكون من عند خالق البشر، فآمنت بذلك وأنا اعتبر أنّ محمّد وعيسى من مدرسة واحدة[44].

وقد وصل بفطرته السليمة إلى ما أقرّته الآية الكريمة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [45].

وهناك عدد كبير من كبار علماء الغرب وفي مختلف التخصّصات، قد وصلوا لما وصل إليه هذا العالم، ومنهم البروفسير موريس بوكي[46]، الطبيب الفرنسي المشهور، الذي ألّف كتاباً أسماه: **(التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)** ويشرح في كتابه هذا أنّه يؤمن بأن هذه الكتب منزلة من عند الله، ولكن التوراة والإنجيل قد دخلهما كلمات من صنع البشر بسبب الفترة الزمنيّة الكبيرة، كذلك بسبب ضياع النسخ الأصليّة، والترجمة وإعادة الترجمة، وذلك يظهر في النصوص التي تتناقض مع الحقائق العلمية الثابتة، أمّا القرآن فنصوصه سابقة للحقائق العلميّة، آياته واضحة يتجلى إعجازها في كل عصر، وهذا يؤكد أن القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر[47].

وهذا الباب يطول الكلام فيه تحت عنوان الإعجاز العلمي في القرآن[48].

هكذا يبقى وجه التحدّي والإعجاز ظاهراً في آيات القرآن إلى يوم القيامة، فكما تحدّى القرآن أهل مكة وهم أهل البلاغة فعجزوا، كذلك فإنّ الله تعالى يتحدى البشرية جمعاء بهذه الآية: ﴿ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ ﴾[49].

في هذه الآية تحدٍ واضح لكلّ البشر، يقول لهم إن كنتم تظنّون أنّكم غير مبعوثين ليوم الحساب، أرجعوا هذه الروح إن كنتم صادقين، هذا الإنسان يكون ملء الأرض قوةً وحيويةً، فإذا خرجت روحه وتركته جثّة هامدة، من يستطيع أن يرجعها ثانية.

إنّ الطبيب له علمٌ يدلّ به ما دام في أجل الإنسان تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام مهلته حار الطبيب وخانته العقاقير[50].

أن تعرف أنّ الله هو الذي خلق الموت والحياة، فلو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يرجعوا هذه الروح التي بين جنبيك أيّها الإنسان هل يقدرون؟ كلّا وربي لستم قادرين، ولقد زاد الله تعالى درجة التحدّي عندما تحدّاهم بخلق ذبابة، ولم يتحدّاهم بخلق إنسان بل ذبابة حقيرة، حيث

- البروفيسور كيث مور، من أكبر علماء التشريح والأجنّة في العالم، تسلّم الجائزة الأكثر بروزاً في حقل علم التشريح في كندا، عام **1984**م، وترأس العديد من الجمعيات الدولية، مثل الجمعية الكندية والأمريكية لاختصاصي التشريح، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية، كما انتخب عضواً في الجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وهو رئيس هذا القسم في جامعة تورنتو بكندا، ألّف كتاباً يعد من أهم المراجع الطبيّة في هذا الاختصاص، وقد أعلن إسلامه في المؤتمر العلمي للإعجاز القرآني الذي عقد في القاهرة **1986**م، انظر، كتاب محمد في أعينهم، يامن الحجة، دار القلم، دمشق، ط **1**، **2011**م، ص**196**.

[44] - أنظر: محمّد في أعينهم، م ن، ص 197.

[45] - البقرة: 285.

[46] - موريس بوكاي: هوالطبيب والعالم الفرنسي المعروف، (1920-1998م) نشأ على المسيحيّة الكثوليكيّة، وبعد أن أصبح طبيباً باطنياً مشهوراً، درس في جامعة السوربون اللغة العربيّة دراسة نظاميّة، وكانت معرفته بالسيدة جيهان السادات، إذ عالج بنجاح قيباً لها في باريس، وقد قدّمه الرئيس السادات ليكون ضمن الفريق الطبي للملك فيصل عاهل السعودية سنة 1975م، درس الكتاب التوراة والإنجيل ثمّ درس في القرآن، وألّف كتابه المشهور، (التوراة والإنحيل والقرآن والعلم). أنظر: محمّد في أعينهم، يامن الحجة، ص 237.

[47] - أنظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكي، ترجمة المفتي حسن خالد، المكتب الإسلامي، ط3، 1990م.

[48] - يامن الحجة، محمد في أعينهم، دار القلم، دمشق، ط **1**، **2011**م، ص**196**. قصة الإسلام، //www.islamstory.com

[49] - الواقعة: 86-87.

[50] - ديوان العرب موسعة الشعر العربي، تطبيق إلالكتراني، يضم أكثر من **79000** قصيدة لأكثر من **500** شاعر، وقد نسب البيتين إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [51].

ونريد من هذا الشرح، أن نقول: إنّ العقل البشري عبر التاريخ قد أقرّ بضرورة وجود خالق أول لهذا الكون المنظّم بنظامٍ دقيق، ولكنّ هذه العقول اختلفت فيما يريد الخالق تعالى من خلقه، فتعدّدت الفلسفات واختلفت في ذلك، وهنا برزت الحاجة إلى رسل من الله ليبينوا لهم ماذا أراد منهم وبذلك يحسم الخلاف، فما من أمة إلاّ خلا فيها نذير، وكل رسول أيده الله بمعجزات دليل على صدقه.

وآخر الرسل محمد ﷺ قد أيده الله بأعظم المعجزات المتمثلة بالقرآن العظيم، وجعلها باقية إلى يوم القيامة كما تقدم أثبات ذلك، ولمن أراد التوسع في ذلك فهناك عدد كبير من الكتب تشرح وتثبت هذه الحقيقة بحيث لا تترك أي مجال لشكٍّ أو ريبٍ[52].

وعندما يصل الباحث إلى الإيمان الذي لا ريب فيه، هذا يقتضي أن يؤمن بأنّ هذا القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، وكلّ ما فيه حجّة بالغة، ومن أعرض عنها ظلم نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [53].

وهذا منطلق أساس في بحثنا، فمن آمن بالله وقرآنه، عندما تقول له: قال الله تعالى: ينبغي أن يقول: سمعنا وأطعنا، وأنا أعجب حينما أستمع إلى حوار بين اثنين، فيقول أحدهما إن الله تعالى قد حرّم الزنا في قرآنه، ثمّ تسمع الآخر يقول: ولكن هذه حرّية شخصيّة لا دخل للدين فيها، ثمّ يدّعي هذا الرجل أنّه مؤمن بالقرآن، ولكنّه يناقض نفسه، إذ كيف يزعم أنّه مؤمن بالقرآن ثمّ يقول لا أستطيع أن أحرّم الزنا لأنّني أرى أنّها حريّة شخصيّة!

فلكلّ علمٍ ضوابط تستند إلى قواعد ومسلّمات ينطلق منها أهل كل اختصاص، فلو تكلّمنا في الهندسة الكهربائية لعدنا إلى الأسس والقواعد التي تنطلق منها، فعندما ندخل إلى غرفة المحولات الكهربائية، نجد لوحة مكتوبٌ عليها باللون الأحمر: (ممنوع اللمس خطر الموت)، فلا يستطيع أحد أن يقول: أنا برأيّ أنّها حريّة شخصية فلنجرب ولنَر ماذا يحدث، ثمّ ماذا تكون النتيجة إن تركناه يفعل، هل يعذره التيار الكهربائي لأنّه لا يعرف؟ كلا فإنّها قوانين حتميّة صارمة لا تحابي أحداً، فمن أراد أن يعمل في هذا الاختصاص عليه أن يتعلم قواعده ويستعين بوسائله، وهذا ينسحب على كلّ اختصاص.

وفي الواقع نرى النّاس يعترفون بهذه المنهجيّة، فيرجعون في كلّ مسألة إلى أهل الاختصاص فيها: إن في الطب أو في الهندسة أو في المكنيك، بل يعاقب من يعمل في اختصاص لا يمتلك شهادة علميّة فيه، ولكنّهم عندما يبحثون في المسائل التي لها علاقة بالدين، مثل عالم الغيب والأخلاق والسياسة والاجتماع، تجد كلّ من قرأ كتاباً أصبح منظّراً في السياسة والأخلاق والاجتماع، وينتج عن هذا ضرر بالغٌ وفوضى عارمة في المجتمع البشري.

الله تعالى قد حرّم على المؤمن أن يتكلّم بما لا يعلم، فقال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [54].

---

[51] - الحج: 73-74.

[52] - أنظر: محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار المكتبي للطباعة والنشر، دمشق، ط2، 2005م.
- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، المختار الإسلامي، القاهرة، 1989م.
- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ترجمة: ظافر الدين خان، دار النفائس، بيروت ط1، 1981م.
- محمد طماشي، عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام، دار المحبة دمشق، بدون تاريخ.

[53] - السجدة: 22.

[54] - الإسراء: 36.

فالمنطلق عندنا هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وهما المرجع الأساس الذي ترجع إليه كلّ المبادئ والأفكار، وبهما نميّز الخبيث من الطيب، وقد أشار إلى ذلك الشيخ محمّد الغزالي بقوله: **"**نحن المسلمين نعتقد أنّ ما بين دفتي المصحف الشريف هو مراد الله من عباده.

وأنّ هذا الموحى المصون يمثّل قواعد الدين الواحد الذي تتابع المرسلون في العصور الماضية على الدعوة إليه، ومناشدة أبناء آدم أن يقتنعوا وينتفعوا بما فيه...

وهو كذلك الوحي الذي سيصحب الإنسانيّة حتى النهاية.

لن يطرأ عليه تغيير بالزيادة أو النقص أو التبديل..

في هذا المصحف صور تامّة رائعة للحق في العقيدة والخُلق والعبادة والمعاملة تكفل للأمم معاشها في الحياة الدنيا، ومعادها في الآخرة!!

وليس لهذا المصحف طابع إقليمي، ولا نزعة خاصة.

إنّ العالمية شائعة في آياته كلّها شيوع الصفاء في وجه المرآة، أو شيوع الزرقة في قبّة السماء.

ربّ العالمين الذي خلق الأجناس والألوان، يضع لأولئك جميعاً نظاماً نفسياً واجتماعياً لا يتفاوتون بإزائه، ولا يمتاز بعضهم على بعض**"**[55].

وعندما يثبت لنا وبعد البحث المعمّق أنّ هذا الكتاب هو كلام الله المنزّل على رسوله محمد ص، عبر الوحي، عند ذلك يكون هذا الكتاب بمثابة البيان المفصّل من خالق هذا الكون، والذي يحدّد فيه الكفيّة التي تحمي الإنسان من غوائل تلك الصفات الخطيرة التي رُكّبت فيه، وتبصره بالسبيل الأمثل، إلى تسخير ما حوله من المكونات لعمارة الكون، وتمكّنه من تحقيق ما عجز العقل بمفرده عن تحقيقه، وما عجز عن تحقيقه الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد قديماً وحديثاً، فيكون الوحي مساعد للعقل لكشف غوامض هذا الكون، الذي تاهت عقول الفلاسفة في البحث عنه[56].

٩ المطلب الرابع: موسى عليه السلام يتحدى فرعون وسحرته

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[57].

وهكذا طلب موسى من فرعون أن يمتحن صدق دعوته بأنّه رسول مكلّف تبليغ رسالة ربّ العالمين، حيث أراه ما أيده الله به من معجزات خارقة لسنن العادة وقوانين السببيّة الثابتة، **(**أولو جئتك بشيء مبين**)**، فخالق الأشياء على ما هي عليه في جوهرها، هو وحده القادر على أن يقلب جوهر هذه الأشياء، وهذه تسمى المعجزة.

والمعجزة هي أمرٌ خراق لسنن الكون يغيّر طبيعة الأشياء، يتحدى بها الرسل أقوامهم، وهذا الأمر لا يستطيعه إلّا إذا كان مؤيّداً من عند الله، فيكون هذا الأمر علامة ودليلاً على تكليف الله لهذا الإنسان بالرسالة،.

فأرسل فرعون يجمع السحرة من أنحاء مملكته، وجاء بكلّ سحارٍ عليم أغراهم بالمال والجاه إن كانوا هم الغالبين، فكان هذا النزال والتحدي بين فرعون وسحرته من جهة ومن جهة ثانية موسى الرسول عليه السلام، قال تعالى:

---

[55] - معركة المصحف، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط2، 2000م، ص7.
[56] - انظر: الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانيّة ، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط 1، 1984م، ص 17-30.
[57] - الشعراء: 30 - 34.

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهٗا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١ ﴾[58].

وهذا ملخّص ذلك الحوار الطويل الذي أثبته القرآن في أكثر من سورة، بعد أن رفض فرعون رسالة رب العالمين عناداً وجحوداً، واتهم موسى بالسحر جمع له كلّ سحارٍ عليم، كان النزال في اليوم الموعود فألقى السحرة عصيّهم وحبالهم فخيّل للناس من سحرهم أنّها تسعى، وذلك ضمن الحيل السحريّة التي يعرف السحرة استخدامها من خلال التمويه والخفة ليخدعوا النّاظرين بسحرهم، ونحن في القرن العشرين اطلعنا على بعض حيل السحرة وهناك مختصّون عرضوا أسرار ذلك العمل السحري فظهرت بحقيتها أنّها حيل وأدوات وأضواء وغير ذلك تصنع تلك الوسائل لخداع البصر حتى يظهر للنّاس وكأنّها حقائق، عند الاطلاع على تفاصيل تلك الخدع تنكشف أسرارها فما هي إلّا خدع لا حقيقة لها.

وهكذا كان سحر سحرة فرعون، فهم يتقنون ألاعيب السحر في عصرهم، فقد صنعوا حبالاً وعصي ووضعوا بداخلها أفاعي ولأنّهم كانوا يعلمون بوسائل التحنيط فقد حنطوا تلك الأفاعي بحنوطٍ خفيف يذهب تأثيره عندما يلقى في تلك الساحة الساخنة من أشعة الشمس المحرقة، فكان ذلك الحنوط يذوب وتظهر تلك الأفاعي كأنّها حبالٌ أو عصي تحولت إلى أفاعي، فصنع السحرة ذلك السحر، ولكن عندما ألقى موسى عصاه فتحوّلت إلى ثعبان مبين.

قال بعض المفسرين أنّ حجم رأسها كحجم التنين، وبطول كبير، فألقيا السحرة ساجدين قالوا آمنّا برب العالمين، ذلك لأن السحرة هم أعلم بوسائل السحر وحيله، لقد رأوا ما فعله موسى أنّه حقيقة كبرى وليس من أبواب السحر، لأن عصاه كان طولها متر ونصف، وكان قطرها حوالي الإنش ونص، فعندما ألقاها تحولت إلى ثعبان مبين فقد زاد طولها عن طول العصا أضعافاً كثيرة وزاد قطرها عن قطر العصا بإضعافٍ كثير، وهذا لا يمكن أن يكون ضمن أبواب السحر، لأنهم عندما صعنوا السحر فلفوا الأفاعي بورق حنوط يذوب بحرارة الساحة، ومن ذلك الذوبان تظهر الأفعى المخبوءة ولكن حجمها وقطرها ينقص عن ما كانت عليه بصورة تلك العصا، فبذلك عرفوا أنّ ما فعله موسى ما هو إلّا تأيد من رب العالمين، فكانوا أول المؤمنين سجدوا لله ربّ العالمين.

ولكن فرعون أبى أن يعترف بتلك الحجّة الدامغة، فاتهم السحرة بالتآمر مع موسى مع أنّه هو الذي دعاهم من أماكن بعيدة وهم لا يعرفون موسى أبداً، فقال كيف تؤمنون به قبل آذن لكم إنّه لكبيركم الذي علّمكم السحر، وقال لأصلبنكم في جذوع النخل ولأقطعنّ أيديكم وارجلكم من خلاف، وهذا شان المعاندين في كلّ زمان ومكان يرفضون الحق الظاهر برهانه والمؤيد بالحجة الدامغة، ويموهون على أتباعهم بالألفاظ الواهيّة وكثير من الأتباع لو عرفوا الحق لا يتبعونه لأنّهم لا يريدون أن يخسروا مصالحهم ومكانتهم عند الطواغيت.

[58] الشعراء: 23- 51.

أمّا السحرة عندما تحوّلوا للإيمان بعد أن ظهر لهم البرهان الوضح كان جوابهم لفرعون اقض ما أنت قض لن نؤثرك على ما تبيّن لنا من الحق، وفضلوا أن يقتلوا على أن يعودوا كافرين، وهذا ما يفعله الإيمان الحقيقي بنفوس المؤمنين.

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ ﴾ [59].

١٠ المطلب الخامس : معجزات نبيّ الله عيسى عليه السلام

وهذا ما حصل مع نبيّ الله عيسى عليه السلام، فعندما أرسله الله إلى قومه، قال لهم أنا رسول من عند الله الخالق لكلّ شيء، الذي يحي ويميت وإليه ترجعون، فقالوا له إن كنت حقاً رسولاً من عند الله الذي يحي ويميت، فاطلب من الله أن يبعث لنا حام بن نبيّ الله نوح عليه السلام **(** كان قد مات منذ أمد بعيد**)**، فانطلق بهم حتى وصل إلى **(**كثيب من التراب**)** فاخذ كفاً من ذلك التراب، قال**:** أتدرون ما هذا؟ **...** قال**:** هذا كعب حام بن نوح قال**:** فضرب الكثيب بعصاه وقال**:** قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه، وقد شاب، فقال له عيسى**:** أهكذا هلكت؟ قال**:** لا بل متّ وأنا شابّ؛ ولكنني ظننت أنّها الساعة فمن ثم شبت**...**"[60].

وقد أكّد ذلك الله تعالى بقوله**:** ﴿ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي ﴾ [61].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[62]

١١ المطلب السادس: وجود بقايا أتباع الرسل دليل تواتر خبري.

إذا كان فريق كبير من النّاس يتخذون من تفرّق أتباع الرسل واختلافهم فيما بينهم، دليلاً لإلحادهم بحجّة أنّ أتباع الدين السماوي يكذّب بعضهم بعضا، فأنا أعتبر أنّ وجود هؤلاء من أتباع الدين على اختلافهم، هو من الأدلّة القويّة على أن الدين حق، ووجود هذا الكم الكبير من أتباع الرسل، وإن اختلفوا في تفاصيل الدين إلّا أنّهم متفقين على الأصول الأساسيّة وهي الإيمان بالله وبيوم البعث، ووجود هؤلاء الأتباع الكثر عبر التاريخ دليل واضح على وجود الرسل، وهذا ما يسمى بالتواتر الخبري، لأصل الخبر رغم بعض التغيرات التي تكمن في التفاصيل، وإنّ ثبات بعض الأصول ولو بشكل جزئي يدل على ثبوت اصل الرسالات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ

[59] - طه: 72- 74.

- الجامع لأحكام القرآن، الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلميّة، بيروت، **1993**م، ج **9**، ص **23.** 60

[61] - المائدة: 110.

[62] آل عمران: 45-51.

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[63].

حتى أنّني قد درست أديان الهند الكبرى فوجدت أنّهم رغم الإختلاف في الجذور والتفاصيل إلّا أنهم يؤمنون بالخالق الأول، ويعتبرون أنه لا خلاص للإنسان من دنس هذه الحياة إلّا بالذهاب إلى عالم آخر والوصول إلى النرفانا حيث تتحد فيه روح الأنسان بالروح الأكبر أي بالخالق الأول، ورغم أنهم كانوا يؤمنون بتعدد الإلهة، إلّا أنهم يؤمنون بالخالق، ويقولون في أناشيدهم التعبّديّة إله الإلهة وربّ الأرباب[64].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾[65].

وهذا يعني أنّ هناك رسلٌ من قِبل الله قد بعثوا في تلك البلاد في الزمن البعيد، ولكن هذه الرسالات قد تعرّضت إلى عوامل التشويه والتحريف والشروح والترجمات وإعادة الترجمات وشروح جديدة لكهان جدد عبر الزمن البعيد، مما جعلها تتحول إلى تعاليم مغايرة لتعاليم رسولهم في أصل دعوته، وهذا نراه وضحاً في أتباع الرسل القريب عهدهم، مثل: اليهودية والمسيحيّة.

حتى إننا نراه في كثير من الفرق الإسلاميّة التي تسرّبت إليهم أفكار من المعتقدات التي كانوا عليها قبل أن يدخلوا في الإسلام، فمزجوا بينها وبين تعاليم الإسلام، فإذا بهم يعتنقون معتقداً جديداً لا يقبله الدين الإسلامي، وهذا لا ينفي أصل انتمائهم للدين الإسلامي، ولكنّهم بدّلوا وغيّروا فباتوا في معتقد جديد يخالف الدين الحق، وعندنا يظهر هذا الإنحراف واضحاً عند البحث الدقيق، ذلك أن القرآن ثابت في نصه وصحة نسبه لله، معجزة في لفظه وتعاليمه، فأيّ فرقة تخالف تعاليم القرآن يظهر انحرافها وعوجها للباحث المتجرّد بشكل واضح.

وبقياس الغائب على الحاضر نقول ما حصل من تلك الفرق التي كان أصل انتمائها للدين الإسلامي، فغيّرت وبدلت، يشبه ما حصل مع أتباع الرسل السابقين، وأقربهم منّا في الزمن الذين يعتبرون اليهود أنفسهم أنّهم أتباع موسى، والنصارى الذين يعتبرون أنفسهم أنّهم أتباع عيسى عليه السلام.

وهذا ما حصل مع مشركي مكة إذ أنّهم كانوا على بقايا من دين إبراهيم وإسماعيل، وقد دخلت عليهم عوامل الشرك مع الزمن، ولكن بقيا لهم أصل الإيمان بالله والإعتراف بإبراهيم وإسماعيل، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، معنى ذلك أنهم يؤمنون بالله وكانوا يقدّسون الكعبة لأنها بناء إبراهيم وإسماعيل، وصفهم الله بقوله:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[66].

وكان نشيدهم حين يطوفون بالكعبة أن يقولوا: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك"...

والتاريخ القريب يؤيّد هذا التوجّه، فلو نظرنا إلى أهل مكّة فقد كانوا على دين إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، ثمّ انحدروا من التوحيد إلى الشرك، حيث ذكر القرآن ذلك بقوله تعالى:

وإذا قيل لهم: أنّكم تعرفون بأنّ الله هو خالق السموات والأرض! فلماذا تعبدون تلك الأصنام؟ قالوا إنّما نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى! وقد أنكر الله عليهم هذا الفعل حيث قال تعالى:

---

[63] - النساء: 163- 165.
[64] - انظر: أديان الهند الكبرى، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصريّة القاهرة، ط1، 1965م.
[65] - الشعراء: 208.
[66] - الزخرف: 9-10.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣ ﴾[67].

ما أريد أن أوضّحه أنّ الدّين أصله صحيح، يبتدئ بما أوحاه الله إلى آدم أول البشر، وإلى الرسل من بعده، ولكن مع تباعد الزمن بين النّاس ورسلهم تختلط تعاليم الدين باجتهادات الكهّان، ويؤثّر في ذلك مصلحة أهل السلطة، فيشرّعون عبر كهّانهم ما يحقّق رغباته ويرسّخ طغاينهم، وقد ذكر لنا القرآن أمثال هؤلاء مثل النمرود في زمن إبراهيم عليه السلام، وفرعون في زمن موسى عليه السلام، حيث كانوا على بقايا من دين يوسف عليه السلام ودليل ذلك واضح عند الفراعنة إذ كانوا يؤمنون إيماناً يقينياً بحياة آخرة لذلك كانوا يدفنون مع الفرعون كلّ أدواته وخدامه ليكونوا بخدمته حين يبعث في الحياة الآخرة، فتلك الجذور في معتقداتهم دليل على بقايا من دين يوسف عليه السلام، ولكنهم غيروا فيها وبدّلوا حتى تناسب أهوائهم وأطماعهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ ﴾[68].

نحن المسلمين نؤمن إيماناً يقينيّاً؛ أنّ الله واحدٌ أحدٌ هو الذي خلق الخلق، وفضّل الإنسان على كثيرٍ من خلقه فأعطاه العقل والإرادة الحرّة، وجعل له الحياة بلاء ليرتقي بها من الجنّة حيث يشاء، وبهذا العقل الذي منحه الله للإنسان يستطيع أن يتوصّل إلى ضرورة الإيمان بخالق واحدٍ لهذا الكون، وهذا ما وصل إليه الفلاسفة المؤمنون عبر التاريخ الذين ما بلغتهم دعوة الرسل، قالوا أنّ لهذا الكون موجد واحد واجب الوجود[69].

فالإنسان بما أُعطي من عقل وفطرة سليمة يصل إلى ضرورة الإيمان بخالق واحد لهذا الكون، ولكن لا يستطيع بعقله أن يعرف ماذا يريد الخالق من خلقه، فاقتضت حكمة الله أن يكلّف نخبة من البشر بتبليغ رسالاته إلى خلقه، فلذلك أرسل الله رسله الى الناس في كلّ زمان ومكان، فهو القائل: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾[70].

ولكي لا يترك للناس حجة في الابتعاد عن نهجه وتعاليمه، قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[71].

ونضيف هنا أنّ من أدلّة الإثبات التي لا يمكن نكرانها، ذلك التاريخ الزاخر بتراث الأنبياء وكثرة أتباعهم، رغم ما طرأ على تلك الرسالات من ظلام العصور وآثار الحروب التي عرّضت كتب الرسل السابقين إلى ضياع جزء كبير منها، وما طرأ عليها من زيادة ونقص فانحرف بها عن الأساس السوي، ولكن وجود آثارها ولو كانت مشوّهة يدل على وجود أصولها، وهذا يسمى في علم التاريخ التواتر لأصل الخبر، فيثبت به الخبر وإن اختلفت التفاصيل، فأصل الخبر صحيح.

وهذا التواتر لوجود أثار الرسل وأتباعهم عبر التاريخ، يفيد يقينياً وجود هؤلاء الرسل ولو اختلفت التفاصيل والجزئيات.

والذي يزيد الأمر يقيناً الأصول المشتركة عند الرسل وكلّ رسول يثني على من قبله خيرًا، ويصدّق بما جاء به ويصحّح ما دخل من خطأ مقصود أو غير مقصود من صنع البشر، ويبشّر بمن بعده، فرسالة الأنبياء واحدة.

---

[67] - الزمر: 3.
[68] - غافر: 34 -35.
[69] - انظر تاريخ الفلسفة، م س، ص15-70.
[70] - فاطر: 24.
[71] - النساء: 165.

ونحن المسلمون قد زادنا يقيناً وإيماناً بالأنبياء والرسل السابقين، أنّ الله ذكرهم في قرآنه العظيم وقد أثبتنا في أول البحث أنّه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، ومعجزته الباقية.[72]

وكذلك نرى الانحدار من التوحيد إلى الشرك عند أتباع سيدنا عيسى عليه السلام وذلك بنصّ القرآن الذي يؤيّد ذلك الواقع المشهود، قال تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[73].

ومن هنا نصل إلى حقيقة واضحة: أنّ أصل الشرائع هي شريعة واحدة أنزلها الله على رسله، ولكلّ رسول ما يتناسب مع عصره، وكانت خاتمة الرسالات رسالة محمد عليه السلام، وقد جمع الله خلاصة ما أنزله على الرسل السابقين في قرآنه العظيم، قال تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾[74].

وقد ثبت عن يهود المدينة أنهم كانوا إذا اختلفوا مع الأوس والخزج يقولون لهم أنّه قد قرب زمن بعثة آخر الأنبياء فلنؤمننّ به ولنقتلنّكم معه، وكان ذلك التهديد المتكرّر هو من أهم الأسباب التي جعلت أهل يثرب -المدينة المنورة- يدخلون في الإسلام أفواجاً.

وكذلك بان ذلك واضحاً فهناك عدد من الأحبار دخلوا في الإسلام بسبب معرفتهم لعلامات النبوة في محمد عليه السلام، منهم الحبر اليهودي عبدالله بن سلام الذي أعلن اسلامه بعد أن رأى النبيّ وسمع منه، وعلم أنّه نبيّ آخر الزمان الذي بشّر به التوراة[75].

وكان إذا حدث بين اليهود وبين العرب احتكاك وخصومة، هدّد اليهود العرب بأنّ نبياً قد آن أوان بعثته وأنّهم سيكونون من أتباعه، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم، فكان هذا التهديد حافزاً لأهل المدينة إلى الدخول في الإسلام، فلمّا لقي رسول الله وفد المدينة في موسم الحج وكلّمهم ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: "تعلمون والله إنّه للنبيّ الذي تتوّعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه"[76].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[77].

---

[72] - انظر هذا البحث، ص 15-20.
[73] - المائدة: 116- 117.
[74] - الشورى: 13- 14.
[75] - انظر: ن س، ج4، ص 165.
[76] - انظر: تهذيب سيرة ابن هشام، م س، ص 83
[77] - البقرة: 89.

"فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلّعاً إلى هذا الدين، وعلّقت منهم آمالاً به، عسى أن تتوحّد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم"[78].

فكان كلام اليهود مع الأوس والخزرج عن قرب بعثة نبيّ آخر الزمان، هو أهمّ أسباب دخولهم في الإسلام، ولكنّ اليهود بسبب استكبارهم وعنادهم لمّا جاءهم النبيّ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به، عناداً وجحوداً، وقد وصفهم الله بذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[79].

ولكنّ رسول الله ﷺ عندما دخل المدينة وادعهم وحالفهم، وكتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود المدينة وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، جاء فيه: "إنّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنّ بينهم النّصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النصر للمظلوم، وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين... وأنّه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإنّ بينهم النصر على من دهم يثرب"[80].

وكان هذا الكتاب يرسّخ العيش المشترك بين أهل المدينة كافّة، هذا ما قدّمه الرسول ﷺ لليهود فجعلهم شركاء وأحلاف، لهم دينهم وأموالهم، وحالفهم على النصرة والتعاون على البرّ، وهم يعرفون أنّه نبيّ آخر الزمن، ولكنّ طباعهم السيئة أبت إلّا الجحود ونكران المعروف والحقد والغدر، وقد نبّه القرآن إلى هذه الخصلة في نقض العهود ووصفهم بشرّ الدواب، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[81].

وكلمة الإسلام تمثّل الدين الذي أرسل الله الرسل كافّة لتلبيغه للنّاس من آدم إلى نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمّد عليهم أفضل الصلاة والسلام[82].

ولكنّ اليهود من بعد يوسف عادوا إلى ما كانوا عليه من الشكّ والريب وإسرافهم في اتباع الهوى.

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[83] .

---

[78] - فقه السيرة، البوطي، م س، ص119.
[79] - البقرة: 40 – 42.
[80] - تهذيب سيرة ابن هشام، م س، ص 102-103.
[81] - الأنفال: 55-56.
[82] - انظر: كبرى اليقينيات الكونيّة، محمّد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط9، 2000م، ص 196-197.
[83] - البقرة: 133.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[84].

ثمّ بعث الله لهم موسى فآمنوا به قليلاً وكفروا كثيراً، وكان تاريخهم مع موسى مليء بالمخالفات والضلالات، فقد نجّاهم الله من فرعون وجنوده وكانوا يسومونهم سوء العذاب، وشق لهم البحر وجعل أرضه يبساً حتّى إذا خرجوا منه أطبقه على فرعون وجنوده وهم ينظرون، ولكنّهم من ذوي الطباع السيئة فقد طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهة كما للمشركين إلهة يبعدونها من دون الله، فزجرهم موسى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[85].

فهل بعد هذا الجحود من جحود، قوم قد شق الله لهم البحر فجعله طريقاً يبسا ونجاهم الله منذ قليل من فرعون وجنوده وأدبق عليهم البحر وجعلهم من المغرقين، وهم ستظرون، فماذا فعلوا، طلبوا أن يكون لهم آلهة يعبدنوها من دون الله، فهل بعد هذا الجهل من جهل؟!

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[86].

ويروي لنا القرآن العظيم، عن كثرة ضلالهم وتفلتهم من الدين، فلمّا ذهب موسى لميقات ربّه، عاد إليهم ليجدهم قد صنعوا عجلاً وعبدوه من دون الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾[87].

ولمّا عاتبهم موسى قالوا حُمّلنا أوزارًا من زينة الناس، وهذا يدلّ على سوء أمانتهم إذا كانوا يستعيرون من حليّ المصريين ولمّا خرجوا مع موسى عليه السلام أخذوا تلك الحليّ معهم.

وألقوها إلى السامري فصنع لهم عجلًا عبدوه من دون الله وكان موسى وهارون عليهما السلام لا يزالون بين أظهرهم، فماذا حدث للأجيال بعد موسى عليه السلام.

يخبرنا الله أنّهم كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون، وهذا تاريخهم في القرآن مليء بالإعوجاج، إلّا قليلًا منهم من صمدوا على الإيمان.

[84] - غافر: 34.
[85] - الأعراف: 138.
[86] - الشعراء: 61- 67.
[87] - طه: 80.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[88].

فتاريخهم يؤمنون قليلاً ويكفرون طويلاً، وصفهم الله بقوله قتلة الأنبياء والمرسلين، وجعل منهم القردة والخنازير، وحمّلهم التوراة فلم يحملوها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[89].

وإذا كانوا لم يحملوا التوراة التي جاءهم بها موسى ولم يتّبعوا موسى الذي نجّاهم من فرعون وجنوده، فهل هؤلاء يمكن أن يتبعوا خاتم رسله محمّد ﷺ، وقد لُعنوا على لسان أنبيائهم من قبل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[90].

وهذا تاريخهم الحافل بالعدواة للأنبياء والمرسلين، فليس غريباً عليهم أن ينصّبوا أنفسهم أعداءً للنبي ﷺ ولرسالة الإسلام منذ البداية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾[91].

١٢ الفصل الثالث: الفلسفة والدين

١٣ المبحث الأول: العلاقة بين الفلسفة والدين

إذا كانت الفلسفة في أحد شقيها قد عملت منذ بداية التفلسف على أن تقدّم للإنسان تفسيراً كاملاً عن وجوده ومهمّته، وعن العالم الغائب عن نظره سواء عالم ما وراء الطبيعة، أو منشأ الإنسان ومصيره بعد الموت، أوتنظيم العلاقة بين الإنسان ومحيطه، وهذه هي نفس المواضيع التي جاء الدين للإجابة عليها.

إلّا أنّهما اختلفا في المصدر والمنهج والنتائج، فإذا كانت الفلسفة قد اقتصرت على العقل في سبر أغوار الغيب ومعرفة غوامضه، فإنّ الدين قد اعتمد على خالق هذا الكون ومبدعه من العدم، للإجابة على كلّ تلك الأسلة التي تتعلق باصل الوجود ونهاية المصير وتحديد تعاليم للحياة بين المبتدأ والمصير، وذلك عبر الوحي الذي أرسله الخالق إلى رسله ليعلموا الناس، وذلك هو الدين.

[88] - المائدة: 70.
[89] - الجمعة: 5.
[90] - المائدة: 78.
[91] - المائدة: 59-60.

"إنّ الفلاسفة ليست شريعتهم واحدة ولا ديانتهم واحدة، بل آرائهم مختلفة وأقوالهم متناقضة تورث لأتباعهم حيرة قلّما تنجلي غمرتها"[92].

وهذا ما يجعل النتائج في الفلسفة ظنيّة ونسبيّة بينما هي في الدين يقينيّة حاسمة لا تقبل الشكّ، وهكذا ترى الخلاف بين الفلاسفة في جوهر الأشياء وماهيّتها بينما تجد الاختلاف حول النصّ الديني يكون في الفهم والتفسير الجزئي لا في الأصول والحقائق الكليّة، وفي ذلك يقول صاحب أخوان الصفا: " إنّ الأنبياء كلّهم مع تباعد أزمانهم واختلاف لغاتهم وموضوعات شرائعهم وافتتان سنتهم تجدهم متفقين على رأي واحد ومقصد واحد فيما يشيرون إليه في دعوتهم الأمم"[93].

والفلسفة لا تغني عن الدين ولا تصل بصاحبها إلى درجة اليقين الذي يجعل القلب راضياً مطمئناً.

ويؤكّد تونبي: "أنّ الأديولوجيات عجزت عن أن تسدّ مكان الدين، وإنّ الإنسان لا يعلم من العالم الذي يعيش فيه إلّا القليل من القشور، وإنّ القليل الذي يعرفه لا يفسّر له سرّ الحياة والكون وإنّ الكلمة الأخيرة في مصيره، ليست في متناوله، ولكنّها ملك قوة قاهرة، عليه أن يتعرّف عليها"[94].

ومما تقدّم يظهر أن الفلاسفة في اختلاف مذاهبهم وكأنما يكذّب بعضهم بعضاً.

أمّا عن العلاقة بين الفلسفة الدين، فهناك الذين قالوا أنّ الفلسفة والدين لا يلتقيان وأولئك الذي قالوا أنّهما لا يفترقان، يوجد بينهما فريق آخر يقرّر أنهما يلتقيان ويختلفان، ولكن هذا الالتقاء يكون جزئي ذلك أنّ المذاهب الفلسفيّة لا تتفق كلّها على حقيقةٍ واحدة، فمثال ذلك: (مسألة وجود الله)، فهناك العديد من الفلسفات تثبت وجود الله فهذه تتفق مع الدين بهذه المسالة، وهناك الكثير من المذاهب الفلسفيّة الأخرى تنكر وجود الله، وهذه تختلف مع الدين، وهكذا يكون الاتفاق جزئي من حيث عدد المذاهب الفلسفيّة حول تلك القضيّة.

ثمّ إنّ تلك المذاهب التي اتفقت مع الدين على حقيقة ما، تعود فتختلف معه في تفاصيل تلك الحقيقة، إلّا أنّ هناك نوع من الحقائق اليقينيّة عند المذاهب الفلسفيّة وخاصة في قسمها الطبيعي، والرياضي، والتطبيقي، فإذا كانت هذه الحقيقة يقينيّة ثابتة بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، وإذا اختلفت مع مفهومٍ ديني فهذا يعني أن نعيد النظر في المفهوم الديني فعند ذلك يكون ذلك المفهوم ناتج عن نصٍ ديني غير ثابت أنّه من الدين، فإذا ثبت يقينياً أنّه من الدين فعند ذلك ينبغي على أهل الفقه في الدين أن يدققوا النظر في صحة تفسير هذا النص، لأنّ هناك نصوص ظنيّة الدلالة تحتمل عدة معاني فننظر إلى المعني الذي يتفق مع الحقائق العلميّة الثابتة.

كما أنّ الفلسفة تحتاج إلى الدين الموحى به من الله تعالى، لكشف غوامض وأسرار العالم الغيبي والإجابة على الأسئلة الملحّة، التي توهمتها عقول الفلاسفة قديماً وحديثاً.

ومن هذا المنظار فإنّ كلّ العلوم يحتاج بعضها إلى بعض، وما قد يظهر من تناقض بين الفلسفة والدين، يعود إلى تعنّت رجل الفلسفة الذي يصرّ أن يقتحم كنه الغيب الغامض الذي لا يخضع لحدود الحواس المحدودة هذا من جهة، ومن جهة ثانيّة بسبب تعنت رجل الدين الذي يريد بدوره أن يحجر على عقول الآخرين ويحملهم على مفهومه الخاص، والذي يريد أن يجعل من فهمه الخاص جزءاً من الدين، وقد يكون رأيه هذا خطأ فينظر بعض القاصرين للدين بأنّه خطأ ويخفى عليهم أن هذا الخطأ من تفسير ذلك المفسّر.

وهذا ما يظهر ذلك التناقض بين بعض المفاهيم الدينيّة مع الحقائق الفلسفية، وهنا يكمن سوء الفهم، إلّا أنّنا إذا أزلنا ذلك الركام المتمثّل بتعنّت رجل الفلسفة وسوء تأويل رجل الدين، عند ذلك يتضح بأنّ الفلسفة والدين توأمان فالدين يضبط العقل في مساره لكشف الحقائق، وما يظهر من خلاف هو في الحقيقة بين رجل الدين ورجل الفلسفة.

فإنّ الدين لا يناقض العقل ولا يسعى لإلغائه، بلّ يجعله حكماً ليتعرّف على صدق الأنبياء ويميّز بذلك بين النبيّ الحقّ وبين من يدّعون النبوة كذباً، ولا بدّ للإنسان أن يُعمل عقله لفهم تلك التعاليم الدينيّة، فإذا حكم العقل بصدق النبيّ المرسل من خلال البحث العقلي العلمي الدقيق حتى يصل إلى اليقين، عند ذلك عليه أن يسلّم بصحة تلك الإيجابات التي يشرح بها الدين أصل الوجود وحقيقة المصير، وتعاليم تشرح طريقة الحياة لتحقيق الأمان والسلام.

---

92 - دراسة للتاريخ، أرنولد تويتبي، ترجمة: مجيد الخوري وآخرون، دار المعارف القاهرة، ط1، مجلد 12، ص 247.
93 - رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، إخوان الصفا، الرسالة الرابعة، دار صادر، بيروت، 1957م، ج3، ص 198.
94 نقلاً عن عقيدة المسلم، محمد الغزالي، درا القلم، دمشق، م ن، ص 180.

١٤ المبحث الثاني: عالم الغيب بين الفلسفة والنبوة

لقد نجحت الفلسفة التي تعتمد على المنطق الرياضي والمنهج التجريبي فيما يتصل بأحوال المادة وشؤون النّاس، إلّا إنّها عندما خاضت غمار عالم الغيب بالعقل المتجرد غير مستعينة بالوحي الذي يكشف حجب ظلام الغيب، ويمخر به إلى برّ اليقين وشاطئ الأمان.

فقد ثبت عجز الفلاسفة والمفكّرين عن إدراك عالم الغيب، واختلافهم وتخبطهم في تفسير غوامضه، أدّى بهم إلى التناقض والتنافر، حتى ظهرت مذاهبهم تكذب بعضها البعض الآخر، وقد تكافأت أدلة المثبتين مع أدلّة المنكرين في نفس القضيّة، مثل: القول بخلود النفس أو بفنائها، فالذين قالوا بخلودها استدلوا بالأدلة العقليّة، والذين قالوا بفنائها استدلوا كذلك بالعقل، فأظهر ذلك التناقض بينهم فساد الإستدلال العقلي بمسائل عالم الغيب، بينما اتفقوا بمسائل عالم الشهادة الخاضعة للتجربة والإستقراء.

"ولو قرأت فلسفة الهنود والرومان واليونان، وتطورات الفلسفة الإنسانيّة عامّة في القديم والحديث، لما تجاوزت بها حدود البحث الحائر وراء الحقيقة الغامضة وشتى الفروض التي يجافيها الصواب ومزيجاً من التحويم الغامض، يعلو ويهبط ثمّ لا يستقرّ على شيء"[95].

وإذا ثبت عجز العقل المجرّد عن أسباب التجربة والإستقراء والتحليل، عن إدراك كنه وسر الموجودات المحيطة به، فهو عن خوض غمار الغيب أعجز.

ونحن نعلم أنّ هناك وسائل توسّع نطاق إدراك الحواس الخمسة، مثل: الميكرسكوب تدرك به العين الأجسام الصغيرة التي لا تبصرها العين المجرّدة، كذلك علمنا بالمشاهدة أنّ العقل لا يستطيع أن يدرك كنه الألوان إذا تعطلت حاسة البصر، هذا فيما يخصّ المحسوسات الأرضيّة، فمن باب أولى أن يعجز العقل عن سبر أغوار عالم الغيب بدون آلة أو وساطة مساعدة، لذلك فإنّ العقل يحتاج إلى واسطة الوحي ليدرك كنه عالم الغيب، ولو تُرك العقل المجرّد للإجتهاد المحض في شؤون عالم الغيب، لضلّ الناس رشدهم، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم.

ولذلك احتاج الإنسان إلى الوحي المنزّل بأمر الله، وإذا نظرنا في التاريخ العميق والقريب، فلا نجد مثابة تفزع إليها الشعوب لتلتمس في ظلالها الخير والمعرفة اليقينيّة إلّا في تعاليم الأنبياء الذين يتلقون تلك الحقائق التي تخصّ عالم الغيب والشهادة من الله عبر الوحي، فهذه التعاليم التي جاء بها الوحي يعجز عن إدراكها العقل منفرداً، حتى في معرفة التي تخص عالم الشهادة تصل إلى إدراكه العقول بعد إخفاق وتجارب متعدّدة، ومع ذلك تبقى تلك النتائج ناقصة تكتمل بمرور الأيام وتكرار التجارب وابتكار الأدوات المساعدة.

والمستقرئ لتاريخ الفلسفة يعرف أنّ عدداً كبيراً منهم قد وصل بالأدلة العقليّة إلى إثبات أنّ لهذا الكون المنظّم خالقاً، فهم عرف بالإستدلال العقل عبر قانون الأسباب اوالمسببات، ضرورة وجود خالق للكون، ولكن هم أنفسهم عندما أرادوا أن يعرفوا كنه ذلك الخالق العظيم، قصرت عقولهم أن إدراك كنه ذاته، وتاهت بحور الشرح والشرح المعاكس الذي لا يزيد الأمر إلّا غموضاً.

فكما عجزت العقول عن إدراك كنه ذات الخالق، كذلك تعجز عن معرفة ماذا يريد من خلقه وما الذي يرضيه وما الذي يسخطه، ومن هنا برزت الحاجة الضروريّة لوجود الرسل، فهم حاجة للناس وحجة عليهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾[96].

وبيّن ذلك الشيخ محمّد الغزالي السقا بقوله: "أحسب أنّه لو لم تأتنا رسل من عند الله تعرّفنا بوجوده، لبحثنا عن سرّ الوجود وستصل أفكار حصيفة حتماً إلى الجزم بأنّ هذا الكون لن يخلقه الوهم ولن ينظّمه العدم، بل لا بدّ من خالق موجود وقدرة منظّمة، ... ومن ثمّ فإنّ بعثة الرسل كانت ضرورة إنسانيّة لتجنّب العالم متاعب الضرب في بيداء طامسة"[97].

---

[95] عقيدة المسلم، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط6، 1987م، ص 181.
[96] - النساء: 165-166.
[97] عقيدة المسلم، محمد الغزالي، م س، ص 184-185.

ونحن نرى أصحاب المذاهب الإنسانيّة والتي هي أكثر من أن تعد، وكلُ منها يدعي أنّه الطريق الأمثل لتحقيق سعادة الإنسان المفقودة، والتي في سبيل تحقيقها اندلعت ألوف الحروب عبر التاريخ، وازهقت ملايين القتلى ولم تصل إلى مبتغاها.

وينبغي على هذه العقول التي أقرّت أنّ وراء هذا الكون المنظّم خالق واحد أوجده ونظّمه، أن تبحث عن وسيلة للتعرّف على هذا الخالق لكي تستعين به وتستمد منه الإرشادات التي بها تستطيع أن تكشف ظلمات الغيب وسبيل الرشد في الحياة الدنيا، ذلك بأنّ العقل والمنطق يقرّان بأن الصانع هو الذي يحدد الحكمة من المصنوع، وهو الأعلم بأسرار صنعته والطريقة المثلى لاستخدامها، وكذلك يحذّر من مكامن الخطر من استخدامات هذه الصنعة.

وإذا كانت هذه العقول بعد أن أقرّت بوجود الخالق، قد أخفقت في إدراك كنه ذاته العليّ مشابهة المخلوق، كما عجزت عن إدراك إرادته، فلماذا تعرض عن رسالته؟ أما كان ينبغي عليها أن تستمع لرسله، وتعمل من أجل التأكّد من صدقهم قبل أن تعرض عنهم؟ أليس من المنطق قبل أن نحكم بصدق أو بكذب قضيّة ما، أن نفحصها فنعرضها على بساط البحث، وبعد أن نشبع تلك المسالة بحثاً ودرايةً، عند ذلك نحكم بصدقها أو كذبها.

١٥ المبحث الثالث: عـجـز الفـلســفـات الـوضـعية عن تلبية حاجة الإنسان الروحيّة

لقد بذل الفلاسفة عبر تاريخ الفكر البشري جهداً كبيراً وهم يبحثون عمّا يحقّق الخير والسعادة ويمنع الشرّ والمضرّة عن المجتمع الإنساني، وهذه هي الغاية الأساس التي سعى لتحقيقها كلّ المنظّرين في الفكر الإنساني عبر التاريخ.

ولتحقيق تلك الغاية، انقسمت آراء الفلاسفة والمفكرين إلى نظريات عديدة، أبرزها المثاليّة، والماديّة، والبراغماتيّة، وما تفرّع عن كلّ منها.

قرر المثاليون أنّ السعادة المنشودة لا تأتي من خارج النفس الإنسانيّة عبر المال والجاه وشهوات الجسد، ولكنّها تأتي من داخل النفس عبر الرضا والقناعة وتحصيل المعارف الكبرى وإرضاء الضمير.

أمّا الماديون، فرأوا أنّ السعادة إنّما تجلبها اللذات الماديّة، فانطلقوا في المفاهيم الأخلاقيّة ضمن حدود اللذات الجسديّة، ودَعوا إلى إطلاق العنان للأهواء والشهوات لتحقيق سعادة الفرد التي تؤدي إلى سعادة المجتمع، وأدّى ذلك إلى تضارب مصالح الأفراد والتحارب من أجل الحصول على اللذائذ.

ورأى فلاسفة آخرون أنّ السعادة تأتي عن طريق الإيثار والمشاركة الوجدانيّة المعارضة لمشاعر الأنانيّة، وذلك عن طريق الضمير الذي يحبّ الخير ويسعد به، ويكره الشرّ ويتعس به.

وهكذا اختلفت الفلسفات وتفاوتت في تحديد القيم الدينيّة عند أصحاب الفكر الإنساني في تاريخه الطويل، برزت الحاجة إلى ضرورة تدخّل الله الخالق عبر إرسال الرّسل إلى خلقه ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه.

من هنا، انطلق أصحاب الفكر الديني، ومنهم الشيخ محمد الغزالي الذي أشار في كتابه العقيدة الاسلاميّة إلى أنّ معظم المذاهب الأخلاقيّة عند البشر تتسم بالنقص، وقد تصيب في جهة وتخطئ في أخرى، لأنّ الإنسان مهما اتسعت ثقافته وامتاز بالموضوعيّة، فإنّه يبقى قاصراً عن الإحاطة بكلّ شؤون الحياة من جوانبها كافّة، وبذلك يصعب عليه أن يعطي فلسفة أخلاقيّة كاملة ومنزّهة عن الهوى والذات، وهذا ما يجعل الأخلاق عند الفلاسفة نسبية ومتعارضة تبعاً لاختلاف المعايير والرؤى عند كلّ فيلسوف.

إنّ مواهب الإنسان العقلية والنفسيّة كبيرة ولكنّها لا تصل الى درجة الكمال، وذلك بسبب ما رُكّب في الإنسان من أهواء ورغبات، لا يستطيع الإنسان التغلّب عليها إلاّ إذا استعان بإرشادات الخالق، فالغرور والإعراض عن إرشادات الرسل، لن يجرّ في عواقبه إلاّ الإحباط والقلق من المستقبل إلى اضطراب في النفس وصراع بين رغبات البشر المتباينة.

إنّ دراسة الحضارات توقفنا على حقيقة كبرى، هي أنّ مصير الإنسان كان يتوقّف على أمرين: علاقته بربّه وعلاقته بالمجتمع الذي ينتمي إليه، والبعد الروحي والأخلاقي هو المركز الأساس في هاتين العلاقتين. فحين ينحطّ الإنسان عن علاقته الروحيّة بربّه، ينغمس في بحر لذاته وأطماعه وشهواته، وتصبح علاقته بالآخرين محكومة بإشباع رغباته ولو على حسابهم، وبشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة؛ وينصرف عن العناية بالمجتمع، إلى العناية بمطالب جسده، ويتحوّل المجتمع كلّه إلى مصالح متضاربة، ويسيطر قانون الغابة.

إنّ الحضارة الغربيّة القائمة على الماديّة، بدأت شعوبها اليوم تكتشف أنّ نهضتها هذه أمّنت لها قسطاً وفيراً من اللذة السريعة، ولكن لم تجلب لها السعادة والاطمئنان، بل هي لذة مجبولة بالشقاء والقلق والسعي وراء السراب.

ولقد ذكرنا سابقاً نبذة من الإحصائيات التي تبيّن مدى المفاسد التي تنتشر في غياب التأثير الديني عن المجتمعات. كذلك ارتفاع معدّلات الأمراض النفسيّة وارتفاع في حوادث الانتحار وخاصة عند أصحاب الأوضاع الماديّة المرتفعة وأصحاب الشهرة.

وفي الآونة الأخير، بدأت هذه المساوئ تتراءى للعيان في المجتمعات الغربيّة، وبدأت أصوات العقلاء في الغرب تنادي بضرورة العودة إلى الدين، وأقرّ بعض القادة والمفكرين بفشلهم في تأمين السعادة والأمان، فكانت النتيجة أنّهم كفروا بالحضارة الماديّة البحتة، معترفين أنّه لا خلاص إلّا بالعودة إلى الدين.

كما دعا برجنسكي[98] الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى مراجعة كاملة للفلسفة الماديّة التي تقوم عليها حضارتها، وإخضاع هذه الحضارة إلى عملية نقد ذاتي صارمة، كما أنّ على أمريكا أن تتجه إلى القناعة بأن المجتمع الذي لا يمتلك قيماً وثوابت مطلقة، والذي يقوم على فلسفة تحقيق المتعة الذاتيّة وإرضاء النزوات هو مجتمع محكوم عليه بالانهيار والذوبان. ويهيب برجنسكي بأمريكا أن تفقه دروس التاريخ في ازدهار الحضارات وانهيارها، وفي تبوّئها مرتبة الريادة وانحسارها عن هذه المرتبة، فيقول: "إنّ التاريخ يعلّمنا أنّه لا بدّ لأيّة قوة عظمى (لكي تحافظ على دور الريادة) من رسالة حضاريّة تقوم على فضائل الأخلاق وتكون نموذجاً يُحتذى من الآخرين عن طواعيّة لا بالقوة والإكراه"[99].

[98] - زبينجنيو برجنسكي، كان مستشار الرئيس الأمريكي كارتر لشؤون الأمن القومي في البيت الأبيض، وقد نال شهرته كمتنبئ بالتغيّر الحضاري، هو الذي تنبأ بانهيار الشيوعية، وقال بأن القدر نفسه سيصيب التجربة الأمريكية. نقلا عن الموسعة الشاملة.

[99] - نقلاً عن وفاء الأيوبي، الحضارة والعولمة إلى أين، دار الإيمان، بيروت، ط 1، 2012، ص 153.

الخاتمة وفيها النتائج والتوصيات

١٦ النتائج:

١- أثبت البحث أنّ العقل هو أساس المعارف عند الإنسان، فمن فقد العقل فقد المعارف.
٢- العقل محدود بسبب محدودية الحواس التي يدرك بها المعارف، فهو يصل عن طريف تلك الحواس إلى معارف يقينيّة إذا كانت خاضعة للمنهجيّة العلميّة، من خلال علوم التجربة والإستقراء والتحليل.
٣- ولكنّ العقل يعجز عن إدراك عالم الغيب، لأنّه خارج نطاق الحواس، فكما يستطيع العقل أن يصل إلى علوم يقينيّة بوسائل علميّة تساعده لكشف حقائق الأشياء، كذلك يستطيع أن يدرك عالم الغيب بالإستعانة بالوحي المنزّل من عند خالق الكون.
٤- يستطيع العقل أن يثبت معرفة الخالق لهذا الكون، ولكن بعقله لا يستطيع أن يعرف ماذا يريد الله من خلقه، ولا يستطيع أن يدرك كنه الذات الإلهية.
٥- عجز الفلسفة الوضعيّة عن تلبية حاجة الإنسان الروحيّة.
٦- حاجة النّاس إلى الرسل من الله ليشرح لهم حقيقة الوجود، وحقيقة المصير بعد الموت، وما ينتظر الإنسان في العالم الآخر.
٧- ضرورة استعمال المبادئ العقلية والإستعانة بالمنهجيّة العلميّة لإثبات صدق الرسل. وإذا تأكّد الإنسان من صدق الرسول فينبغي عليه أن يتبع إرشاداته.
٨- كما أثبت البحث أن نبوة الأنبياء قبل فلسفة الفلاسفة، والدين أصل المعارف الإنسانيّة، والدين هو واحد، وهو دين الأنبياء كافّة، من زمن آدم إلى خاتم الأنبياء، وهو دين الإسلام.

١٧ التوصيات

١- توصي الدراسة أصحاب الفكر الحيّ ورجال الدين في العالم كافّة، أن يعملوا بما يوجبه عليهم العقل العلمي، ويعيدوا البحث في ألأديان كافّة بعقل منفتح ومنطق علمي رصين، وأن يطلعوا بشكل جدي على الدين الإسلامي وعلى كتابه القرآن، فإنّه يملك من الأدلة والبراهين ما يؤكّد صحة انتماء كلّ الأديان في أصولها الأولى إلى الله الواحد.
٢- توصي الدراسة أصحاب الفكر الإسلامي والدول الإسلاميّة، أن يبذلوا جهداً أكبر في شرح هذا الدين إلى العالم بشقيه الغربي والشرق، وأن يعملوا بجد لإزالة ذلك الركام الذي صنعه أعداء الإسلام عبر التاريخ، والصقوا بالإسلام ما ليس فيه، وعملوا على تشويه تعاليم الإسلام في الماضي ولا يزالون حتى الآن.
٣- توصي الدراسة علماء المسلمين بتنقية التراث الإسلامي من المدسوسات، وتقديم شرح لتعليم الإسلام بأسلوب علمي يرد على الشبهات ويصحح الأخطاء.
٤- توصي الدراسة الدول الإسلاميّة بإنشاء مراكز متخصّصة للدراسات المقارنة بين الدين والفلسفة، لبيان سبق النبوة ودحض الشبهات الفلسفيّة المعاصرة.
٥- توصي الدراسة بإدراج مادّة "العقيدة الصحيحة ومنهج إثبات النبوة" في المناهج التعليميّة في المدارس والجامعات لموجهة الفكر الإلحادي وتعزيز الإيمان لدى الناشئة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[100].

[100] البقرة: 143.